ويقال على هذا المثال : « لا يماثل المرض فى الإنسان والحيوان ، وقد يماثل فى الإنسان »

ويقال أيضاً : « لا يتراوح الاختلاف بين عصرين ، ولكنه قد يتراوح بين يومين أو سنتين »

ويقال تفانيا وتقاضاه ، وتجاوبا وتجاوب الصدى أو تجاوب المكان بالأصوات ، وتراميا وترامى السحاب ، وتدانيا وتدانى منه ، وغير ذلك كثير مما فيه قصد المفاعلة وليس فيه قصد التعاقب والترقى

وليعلم ذلك الخازن الواهم بعد هذا أن الاختلاف مفرد ولكنه يدل على جميع المختلفين ، فإذا قلنا تراوح الاختلاف فهو القياس كما تقول تراوح المختلفون وتماثل الناس وتباينت الأمم وتمانق الأ ب ، ولا نهاية لما يقال من هذا القبيل

أفيقال هذا إذن أو لا يقال يأيها الجواد ، بلغة العامة لا بلغة الضاد ؟ يقال ويقال ، وإن استطعت فقل خيراً منه فى معناه ، وما أنت بمستطيع .

عباس محمود العقاد

الغنــــاء

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

أنا (والله) لست من علماء (الغناء) ولا من التلامذة فيه ؛ ولا أغنى اليوم دوره حتى أسمعه ، ولست عراقياً ولست حجازياً ... (فما أشرب ولا أطرب ... [1])

ولو كنت هناك لتمثلت بقول محمود جار الله (رحمه الله) :

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى ... من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلى طرباً لحل عويصة ... أشهى وأحلى من مدامة ساق
وصرير أقلامى على أوراقها ... أحلى من الدوكاه والعشاق [2]

(١) قال بعضهم : أباح أهل الحرمين الغناء وحرموا النبيذ . وأباح أهل العراق النبيذ وحرموا الغناء ، فأوجدوا لنا السبيل إلى الرخصة فيهما عند اختلافهما إلى أن يقع الاتفاق »

(٢) الدوكاه والعشاق : نغمان . وجدت فى نزهة الجليس للعباس ابن على المكى هذا : « أنغام العرب أصلها فارسية وهى ستة كالهندية : الراست والدكاه والسيكاه والجهاركاه والبنجكاه ونوروز الصباح .

وألذ من نقر الفتاة لدفها ... نقرى لألقى الرمل عن أوراقى

وما روايتى قول الحسن البصرى فى السماع ـ وقد نظمه ابن عبد ربه فى عقده ـ وسائر ما أرويه فى (نقل الأديب) إلا زلفى ، تزلف إلى هذه اللغة التى شاء الله أن أكتب فى ديوان خدامها ووسيلة لتحبيبها إلى بنيها فى هذا الزمان العجيب . فلما اطلعت فى الرسالة الغراء (٥٦٣) على مكتوب الفاضل السيد عبد العزيز الرفاعى فى (مكة المكرمة) فى الحجاز موطن الغناء فى القديم ودار محاليه ، خفت أن أجيب ، فأخطىء ولا أصيب . وأنا فى البحث فيما أعرفه المعرفة الصالحة وجل القلب ، فكيف تكون حالى فى الذى أجهله ؟ فليس لى ـ وقد قلت الحق ـ إلا اتباع هدى الله والعمل بقوله تعالى فى (النحل والأنبياء) : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »

ورحت إلى ابن عبد ربه وقلت له : انت رويت قول الحسن فى كتابك (العقد) ـ واسمه اليوم العقد الفريد ـ فكيف يكون الغناء عوناً على طاعة الرب ، وكيف يصل الرجل به رحمه ويؤاسى أخاه ؟ فتلقيت منه هذا الكلام :

« إن الصوت الحسن يسرى فى الجسم ، ويجرى فى العروق ، فيصفو له الدم ، ويرتاح له القلب ، وتنمى له النفس ، وتهتز الجوارح ، وتخف الحركات ... وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب . وقد يبكى الرجل بها على خطيئته ، ويرقق القلب من قسوته ، ويتذكر نعيم الملكوت ويتمثله فى ضميره ... وبعد فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب ... من الصوت الحسن ... وهل على الأرض رعديد مستطار الفؤاد يغنى بقول جرير :

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... هل أنت من شرك المنية ناج ؟ !

إلا ثاب إليه روحه ، وقوى قلبه ؟ أم هل على الأرض بخيل قد تقفعت أطرافه لؤماً ثم غنى بقول حاتم الطائى :

يرى البخيل سبيل المال واحدة ... إن الجواد يرى فى ماله سبلا

إلا انبسطت أنامله ، ورشحت أطرافه ؟ أم هل على الأرض غريب نازح الدار بعيد المحل يغنى بشعر على بن الجهم :

يا وحشتا للغريب فى البلد النازح (م) ماذا ... بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا إلا انقطعت كبده حنيناً إلى وطنه ؟ ... »

وناقشت صاحب (العقد) فى التحليل والتحريم فقال لى : ع هذا الخبر :

« قال ابراهيم بن سعد الزهرى قال لى الرشيد : من بالمدينة ممن يحرم الغناء ؟

قلت : من أمتعه الله بخزيته !

قال : بلغنى أن مالك بن أنس يحرمه

قلت : يا أمير المؤمنين ، أوَ لمالك أن يحرم ويحلل ؟ والله ما كان ذلك لابن عمك محمد (صلى الله عليه وسلم) إلا بوحى من ربه ، فمن جعل هذا لمالك ؟ ولو سمعت مالكاً يحرمه ويدى تناله لأحسنت أدبه ... »

وجيت إلى ابن خلدون وفاتحته بما قصدته لأجله ، فما أملاه على :

« إن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل منها الصعب ... ويزيد ذلك تأثيراً إذا كانت الأصوات متناسبة ... لأجل ذلك تتخذ العجم فى مواطن حروبهم الآلات الموسيقية فيحدق المغنون بالسلطان فى موكبه بآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة »

وقلت فى نفسى : « الحكمة ضالة المؤمن » فغدوت إلى أصحاب (رسائل إخوان الصفاء) واستراْيتهم – طلبت رأيهم – فى الغناء ، فمن جواباتهم :

« من الألحان والنغمات ما يسكن سورة الغضب ، ويحل الأحقاد ، ويوقع الصلح ، ويكسب الألفة والمحبة . فمن ذلك ما يحكى أنه فى بعض مجالس الشراب اجتمع رجلان متغاضبان وكان بينهما ضغن قديم ، فلما دار الشراب بينهما ثار الحقد ، والتهبت نيران الغضب ، وهم كل واحد منهما بقتل صاحبه ، فلما أحس الموسيقار بذلك منهما وكان ماهراً فى صناعته غير نغمات الأوتار ، وضرب اللحن الملين المسكن وأسمعهما ، وداوم حتى سكن سورة الغضب عنهما ، وقاما فتعانقا وتصالحا . ومن الألحان والنغمات ما ينقل النفوس من حال إلى حال ويغير أخلاقها من ضد إلى ضد . وكانوا يستعملون عند الدعاء والتسبيح والقراءة ألحاناً من الموسيقى تسمى « المحزن » وهى التى ترقق القلوب[1] إذا سمعت وتبكى العيون وتكسب النفوس الندامة على سالف الذنوب ، وإخلاصَ السرائر ، وإصلاحَ الضمائر . وكانوا قد استخرجوا لحناً آخر يقال له « المشجع » كانت تستعمله قادة الجيوش فى الحروب ، يكسب النفس شجاعة وإقداماً . واستخرجوا أيضاً لحناً آخر كانوا يستعملونه فى المارستانات يخفف ألم الأسقام عن المريض . واستخرجوا أيضاً لحناً آخر يستعمل عند المصائب والأحزان يعزى النفوس ويسكن الحزن . واستخرجوا لحناً آخر يستعمل عند الأعمال الشاقة والصنائع المتعبة مثل ما يستعمله الحمالون والبناءون وأصحاب المراكب يخفف عنهم كد الأبدان وتعب النفوس . ولكل أمة من الناس ألحان ونغمات يستلذونها لا يستلذها غيرهم مثل غناء الديلم والأتراك والأعراب والأرمن والزنج والفرس والروم من الأمم المختلفة الألسن والطباع والعادات ... »

وقد وجدت عند صاحب كتاب (إنسان العيون) المعروف بالسيرة الحلبية هذه المقالة وهى جديرة بالرواية :

« قد شوهد تأثير السماع فى الحيوانات غير الناطقة بل فى الأشجار ... ومن لم يحركه السماع فهو فاسد المزاج غليظ الطبع . وعن أبى بشر أن النبى (صلى الله عليه وسلم) وأبا بكر مرا بالحبشة وهم يلعبون ويرقصون فلم ينكر عليهم . وبه استدل أئمتنا على جواز الرقص حيث خلا عن التكسر . وتواترت الآثار بإنشاد الأشعار بين يديه (صلوات الله وسلامه عليه) بالأصوات الطيبة مع الدف وبغيره . وبذلك استدل أئمتنا على جواز الضرب بالدف ، ولو فيه جلاجل ، لما هو سبب لإظهار السرور »

تلكم أقوال جماعة فى الغناء ، وحيا الله أخانا الفاضل المكى وجيا ربعه ، وحيا مواطن عظيمة كريمة بهر الدنيا منها ذلك الضياء !

---

(١) فى (الأحياء) للغزالى : ينبغى أن يمنع من الضرب بالشاهين فى معسكر الغزاة فان صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ، ويشوق إلى الأهل والوطن ، ويورث الفتور فى القتال وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب . فالألحان المرققة المحزنة تباين الألحان المحركة المشجعة ، فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص